في الطريق

غسان زقطان، فلسطين

الشجرة في السفح والطائر في الزوبعة

أيها النصر
أيها الصنم الذي ينزف كل ليلة على عتبات بيوتنا
ويترك دمه في أحلامنا.
أيها الشبح الذي يسحب ظلَّه في الوديان مثل عربة أحجار سوداء
وهو ينادينا بأسماء أمهاتنا.
يا جدول الدم
النازل من بيوت أجدادنا المحفورة في الجبال العالية
نحو حصائرنا المفرودة في منافينا
القادم من تلال الزمن العميقة وشقوق الحكاية الأولى
ليصب في أيامنا المعقودة على المشقة وموت الإخوة.

أيها الضبع
الذي ينادي أولادنا كلما غفوا ويقودهم مسرنمين إلى مسالك الجبال الشائكة
خفخفتك التي تأخذنا
وضحكتك التي تنبت فيها الحجارة والأيام القاسية
خطوتك التي تسبقنا
وظلك ما نجده على المصاطب.

أيها النصر

الرجل العالق في المنعطف

والشجرة في السفح

والطائر في الزوبعة

الضوء في المقبرة

والأثر على الرمل

والأمل الذي يربي الموت في حديقته.

أيها النصر

نحن حبُّ الرحى

في حديث الغبار.

حملنا على أكتافنا نهرَنا العزيز وبحيراتنا الغالية

كمن يحمل معجزات الخلق عن كاهل الرسل

في كل ماء معجزة وعلى كل أرض مقتلة.

أيها النصر

"نحن الذين بعَثَتنا إليكَ الولاياتُ

بالذهبِ وكُتبِ الموتى،

مَكَثْنا في الدروبِ والحاناتِ

أثْقَلْنا الأدلاَّءَ بالعطايا

وعلَّقْنا الحريرَ على الخرائبِ

وبالتذَّكرِ أغلَقْنا عيون الموتى

وليس لنا مَلكٌ

ولا قضاة."*

*مقطع من قصيدة "تلال مالحة"/ من استدراج الجبل

نام الجنود في حقل البطيخ

عاد الجنود الذين مروا من هنا في الربيع

عادوا في الليل في طريقهم إلى بلادهم البعيدة

رآهم الصبية وأبناء الرعاة

قالوا: عادوا منهكين بأرتال قليلة وهيئات مشوشة.

صبي فضولي اقترب منهم قال:

- لا يشبهون الذين ذهبوا.

نام الجنود في حقول البطيخ القريبة
ناموا من التعب
وناموا من الموت الذي علق بأعينهم وأيديهم
أفسدوا بأحذيتهم الأثلام

ونفَّروا طيور القبَّرة المتوَّجة من أعشاشها.

كان صعباً على الناظر من كتف التل تمييز رؤوسهم المنحنية وخوذاتهم التي غطَّاها الطين وأوراق الشجر الرطبة من ثمار البطيخ التي تتهيأ لموسمها

حيث أصبح من الممكن، في الليل، سماع خشة قلبها وهي تنضج.

وجدهم الفلاحون ممددين في الأثلام مثل حقل من الجثث.

لم يطلبوا شيئاً سوى النوم وهو أمر لا يمكن حمله في سلَّة

أو حزمُه في صرَّة

أو مسحُه على رغيف.

قالت امرأة لجندي كان يحدق فيها بعينين تائهتين

- هل انتصرتم؟

نظر الجندي بخوف نحو الجنوب الذي وصلوا منه.

قالت المرأة

- هل خسرتم؟

نظر الجندي بقلق إلى ساقيه وتحسس جسده.

نظرت المرأة إلى الجندي ولم تحزن.

- لا أعرف. قال الجندي بعد أن ذهبت المرأة.

كانت رؤوس الجنود وخوذاتهم تتداخل مع ثمار البطيخ

وأجسادهم مع النبات الذي تمدد وتسلق الأثلام المروية حديثاً.

- لكننا قتلنا خلقاً كثيراً هناك، قال الجندي للمرأة التي ذهبت.

هنا تحدث فقط الحروب. قالت المرأة التي اختفت الآن

تأتي وتذهب

تصل الجيوش براياتها تنفش ريشها وتقرع طبُولها وتدفع عرباتها

يبني الملوك قلاعاً

يحرق القادة الأحراش والمدن

يحفر الجنود خنادق وقبوراً

ويؤلف الشعراء قصائد ليغنيها العامَّة

القلاع تأكلها الأعشاب

ويطفئ المطر الحرائق

الخنادق يملؤها التراب

والأغاني تطفو في النهر مثل عصافير ميتة.

الأرض وحدها تواصل عملها وتشفي جروحها مثل أمٍّ خالدة

بالعشب

والنار

والتراب

والماء

ليس ثمة نصر هنا

الحروب فقط

والجيوش التي تأتي وتذهب.

في الطريق إلى أحراش يعبد

في الطريق إلى أحراش "يعبد" غيوم منخفضة

الغيوم تغطي أشجار السرو المعمرة

السرو يجمع الضباب، والضباب يغطِّي الكهوف الحجرية العميقة

ويمحو آثار الفتية الذين عبروا حقول التبغ منذ زمن طويل،

تسعين سنة أقل أو أكثر قليلاً.

بحَّارة من عكا وحيفا في الشمال، وعمَّال موانئ من يافا، وشعراء جوَّالون من الكرمل والجليل معجزتهم الارتجال، وقصَّاصو أثر من بئر السبع، وغطَّاسون من أيلة في الجنوب، ورعاة من السهول ومنحدرات جبل الشيخ، صيَّادون من طبريَّة يكثِّرون السمك في شباكهم، وفلَّاحو فواكه من منابع نهر الأردن الصافية، زارعو نخل من بيسان، وفلاحون من مرج بن عامر ينثرون الحب على الدروب حتى تخوم الناصرة حيث يتجول جرس كنيسة البشارة، فلَّاحو جبال من الخليل يحيطون السفوح

بأحزمة العنب، وجامعو ملح من البحيرة في الغور، وقطَّافو زيتون من بيت جالا...

الفتية الذين ما زال القرويون يشاهدونهم في الليالي المقمرة

وهم ينظِّفون بنادقهم بزيت السلاح

ويلفُّون الطلقات المتبقية بكوفياتهم لئلا يبللها الندى.

وحدها في الطريق إلى البيت

بلادي التي لا بلاد لها

وحدها في الطريق الطويل إلى البيت

بستانها خلفها والطيور التي شربت من مياه الوضوء

مرَّ عنها الغبار ومرَّ بها البرد والريح مرَّت

ومرَّ بها عابرون قساة

ومرَّ بها أنبياء رعاة

وظلت هناك على حافة الكون

حنطية في الطريق،

وبيضاء، بيضاء،

بيضاء في الحلم من غير سوء